أخبار

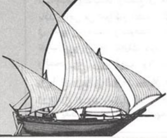

البحار

في كتب التراث العربي

يزخر التراث العربي الذي آل الينا من القرون الوسطى بالكثير من أخبار البحار والأسفار البحرية التي قام بها الملاحون والتجار العرب في المحيط الهندي وأرخبيل الملايو وفي بحر الصين أو على السواحل الافريقية. وبلغ الاهتمام بالبحار مداه في القرنين الثالث والرابع الهجري (التاسع والعاشر الميلادي) برواج التجارة البحرية مع الهند والصين. وفي ذلك الوقت كانت مواني البصرة وسيراف ومسقط تعج بالربابنة وأصحاب السفن من مختلف الجنسيات، وكان للربابنة والتجار العرب والفرس المسلمين في كانتون بالصين جالية قوية لها مساجدها وتقاليدها وتخضع في معاملاتها للقضاء الاسلامي وذلك باذن خاص من امبراطور الصين. كما كانت ديار التجار العرب عامرة في جزيرة سرنديب، واستوطنت اسر حضرمية جزيرة جاوة (وكانت تعرف بجزيرة الزابج، ناهيك بزنزبار التي حكمها سلاطين من المهرة والشحر حتى عهد قريب. ولا تزال الدنانير والدراهم العربية يعثر عليها الى اليوم في أماكن متفرقة من الصين في أقاصي الأرض من الشرق الى السويد وجزر بحر البلطيق في أقصى الشمال لأوربا، الأمر الذي يعكس نشاط التجارة العربية في رقعة متسعة من العالم القديم.

وسنعرض في هذا المقال لمحات عن البحار وأخبارها مستقاة من كتب التراث العربي القديم التي أتيح لنا الاطلاع عليها حتى يقف القاريء على مقدار مساهمة العرب الأوائل في تقدم العلوم. وجدير بالذكر أن تاريخ الملاحة العربية لم ينل حظا من الدراسة مثلما نالت علوم أخرى.

ويمكننا أن نقسم المصادر التي تعرضت لأخبار البحار والملاحة في التراث العربي الى أربعة أقسام رئيسية، ناهيك بما ورد عن البحار والسفن من أوصاف في الشعر العربي القديم سواء من العصر الجاهلي أو من العصر العباسي وهذا

سوف نتناوله في هذا العرض. أما الأقسام الرئيسية للمصادر فهي: كتب الرحلات والقصص البحري، كتب البلدان، كتب العجائب، ثم الأراجيز والمرشدات الملاحية المتخصصة. وسنتناول في هذا البحث القسم الأول من هذه المصادر وهو المتعلق بالأسفار والقصص البحري.

وصف الطريق الى الهند والصين :

وأقدم هذه الكتب المخطوط المعروف باسم «رحلة التاجر سليمان» ويرجع تاريخ تأليفه الى عام ٢٣٧هـ (٨٥١م). وفيه وصف ممتع للطريق الملاحي بين سيراف وكانتون ومقارنة بين الأحوال المعيشية لأهل الهند والصين. وقد عنى بدراسة هذا المخطوط المستشرقون الفرنسيون من أمثال رينو Renault وفرّان Ferrand وسوفاجيه Sauvaget.

وتصف الرحلة المراحل الملاحية التي كانت تقطعها السفن العربية في طريقها الى الهند والصين ويمكن اجمالها في أربع مراحل تستغرق كل واحدة منها شهرا قمريا. وتبدأ الرحلة من سيراف أو مسقط الى ميناء كولم ملي (وهي ميناء كويلم الآن في جنوب الملبار بالهند – أنظر شكل ١) ثم عبر المضيق بين الهند وسيلان الى خليج البنغال (وكان يسمى بحر هرقند) فتحط السفن على جزيرة فيه تسمى لنجبالوس (احدى جزر نيكوبار). ومن ثم تخطف السفن الى كله بار على الساحل الغربي للملايو ثم الى جزيرة تيومن الواقعة الى الجنوب الغربي من ملقا ومنها الى سايجون فجزيرة هاينان (وهي على أبواب الصين) ثم الى ميناء خانفو (كانتون الحالية) بالصين. ومن السفن العربية ماتوغل لأبعد من ذلك على سواحل كوريا أو حتى الى اليابان. ومن المؤرخين من يرى جزر «الواق واق» المذكورة في رحلات السندباد هي احدى جزر اليابان. وفي ذلك يقول ابن الفقيه الهمذاني (٩٠٣م) «في كتاب البلدان»: «واق واق الصين هو بخلاف وقواق اليمن(١). وفي موضع آخر يقول «وخلف الصين أمة يقال لها واق واق، ووراء واق واق من الأمم مالا يحصى إلا الله».

وبعد التاجر سليمان بنحو عشرين عاما قام بنفس الرحلة ربان آخر هو ابن وهب وقد سافر الى الصين في ابان ثورة الزنج ببغداد (٨٧٠م) فوصل الى ميناء خمدان أو سينانفو الحديثة.

وفي القرن العاشر الميلادي دون أبو زيد حسن السيرافي من أهل البصرة قصص سليمان وابن وهب وهو المخطوط الذي بين أيدينا الآن ويعرف باسم مخطوط باريس وقد نشره فران عام ١٩٢٢م.

عجائب الهند :

والى تلك الفترة تنتمي أيضا مجموعة قصص أخرى تعرف باسم «عجائب الهند» مكتوبة بأسلوب أكثر إثارة وتشويقا، وقد جمعها ربان يدعى بزرك بن شهريار الرام هرمزي بين سنوات ٩٠٠ – ٩٥٠م وتوجد نسخة محلاة برسوم ملونة جميلة من هذا المخطوط بدار الكتب بالقاهرة اتيح لنا الاطلاع عليها عام ١٩٥٦م. وهذه الحكايات تصف أهوال الملاحة في عرض المحيط ومغامرات الملاحين والتجار العرب في ذلك الوقت. وإليك فقرات من احدى قصص «عجائب الهند» لتقف على أسلوب الكتابة في مجتمع البحارة في ذلك الوقت.

«.. فلما طال عليهم الليل وهم يجرون في قبضة الهلاك وقد حكم عليهم الريح العاصف والبحار الزاخرة والأمواج الهائلة، ومركبهم ينط ويئن، ويتقعقع ويتتعتع – توادعوا، وصلى كل منهم الى جهة على قدر معبوده، لأنهم كانوا شيعا من أهل الصين والهند والعجم والجزاير، واستسلموا للموت، وجروا كذلك يومين وليلتين لا يفرقون فيها بين الليل والنهار..

فلما كانت الليلة الثالثة وانتصف الليل، رأوا بين أيديهم نارا عظيمة قد أضاء أفقها فخافوا خوفا شديدا وفزعوا الى ربانهم وقالوا له: ياربان : ماترى هذه النيران الهائلة التي ملأت الأفق ونحن نجرى الى سمتها وقد أحاطت بالأفق،

والغرق أحب الينا من الحريق. فبحق معبودك الا قلبت بنا المركب في هذه اللجة والظلمة، حتى لا يرى أحد منا الآخر ولا يدري ما كانت ميتته ولا يترع لوعة صاحبه، وأنت في حل وبل مما يجرى علينا! فقد متنا في هذه الأيام والليالي ألف ألف ميتة فميتة واحدة أروح. فقال لهم: اعلموا أنه قد يجرى على المسافرين والتجار أهوال هذا أسهلها وأرحمها. ونحن معشر ربابنة السفن لا نطلعها إلا وآجالنا وأعمارنا فيها، فنعيش ونموت قليلا منها ونموت بعطبها، فاصبروا واستسلموا لملك الريح والبحر الذي يصرفهم كيف يشاء!».

والحق أنها لوحة رائعة تصور ماكانت عليه الملاحة الشراعية في عرض المحيط في ذلك الوقت من أخطار وأهوال، وماكان عليه الربابنة العرب من رباطة جأش وثقة.

ومثل هذه القصص كانت تعكس أيضا أحوال البحار والحياة على ظهر المركب وأخبار التجار وطريقة معاملاتهم، ووظائف البحارة على ظهر المركب وأنواع التجارة وطريقة تحميل السفينة وتفريغها ومن كل هذه المسائل والخبرات تجمعت المباديء التي استنبطناها من دراساتنا لأعمال الملاح العرب أحمد بن ماجد تحت عنوان «دستور الملاحة العربية» فيما بعد(٢).

قصص البصرة والأدب الشعبي :

ولسوف يجد القاريء كذلك تشابها كبيرا في الأسلوب والرواية والحبك بين هذه القصص ومجموعة الفصص المعروفة بقصص السندباد في ألف ليلة وليلة والتي كتبت في عصر متأخر ولم تكن في الواقع سوى حكايات البحارة والربابنة والتجار التي كانت تروى في سيراف والبصرة في القرنين التاسع والعاشر الميلادي وان كان قد أضيف اليها بعد الكثير من الكلمات المبتذلة بأسلوب ركيك.

كما انتقلت قصص البصرة وسيراف آنفة الذكر أيضا في وقت متقدم الى

الآداب الأوربية الشعبية وذلك بانتشار تجارة العرب غربا وبقيام المراكز الحضارية في الأندلس وحضور الطلاب من بلدان أوربا المختلفة لينهلوا من منابع العلم العربي في جامعات قرطبة وبرشلونة وغرناطة.

ومن ذلك القصص الأوربي البحري المعروف تحت اسم اسطورة القديس برندان الايرلندي من القرن الحادي عشر الميلادي. وقد قام بدراسة موسعة عليها المستشرق الهولندي الكبير دي جوية(٣) في أواخر القرن الماضي. ويوجد شبه كبير بين هذه الحكايات وقصص السندباد المعروفة. وتحكي احدي قصص القديس برندان أن مركبه حط مرة على جزيرة وصعد اليها ليقضي الليل وفي الصباح تحركت الجزيرة التي لم تكن سوى ظهرا لحوت ضخم(٤).

أخبار الملاحة في بحر الظلمات:

لم تكن سواحل المغرب كما يعتقد الكثيرون نهاية المطاف أمام العرب المتحفزين للمغامرة والكشف. ولم يرهبهم الخوض في بحر الظلمات (المحيط الأطلنطي) مثلما أرهب غيرهم من الأمم في القرون الوسطى، إذ تأتينا أخبار عن محاولات جادة للملاحة غربا في هذا المحيط. ويروي المسعودي في كتابه المعروف بمروج الذهب ومعادن الجوهر الذي انتهى من تأليفه في عام ٣٤٥ هجرية أنباء «من غرر وخاطر بنفسه ومن نجا منهم ومن تلف وما شاهدوا منه ومارأوه» ويروي قصة «رجل من أهل الأندلس يقال له خشخاش وكان من فتيان قرطبة وأحداثهم فجمع جماعة من أحداثها وركب بهم في مركب استعداها في هذا البحر المحيط (بحر الظلمات) فغاب فيه فترة ثم انثنى بغنائم واسعة وخبره مشهور عند أهل الأندلس».

ويروي الشريف الادريسي (القرن ١٢م) هو الآخر رحلة «الاخوة المغررين في بحر الظلمات، وهم ثمانية شبان أبناء عمومة من لشبونة أبحروا مع الريح الشرقية مدة أحد عشر يوما الى موضع صخري مخيف شديد الظلمة ثم اتجهوا جنوبا

مدة اثنى عشر يوما الى أن بلغوا جزيرة الغنم، فأبصروا قطعاناً هائلة منها ثم توغلوا اثنى عشر يوما أخرى في نفس الاتجاه حتى بلغوا جزيرة أخرى فأسرهم أهلها وكانوا ذوي بشرة حمراء وشعرهم قليل ناعم وهم طوال القامة، وعندما بدأ هبوب الريح الغربية أمر سيد الجزيرة بترحيلهم معصوبي الأعين الى القارة التي بلغوها بعد ابحار ثلاثة أيام بلياليها. وهناك علموا من البربر أنهم بجنوب مراكش على مسيرة شهرين من بلدهم» ويرجع وصف هذه الرحلة الى القرن العاشر الميلادي، ويميل بعض المفسرين الى القول بأن الجزر التي كانوا عليها هي جزر الكناري المعروفة، ويذهب آخرون الى حد القول بأن الأخوة المغررين ومن حذا حذوهم من العرب قد سبقوا كولمبس الى اكتشاف أمريكا. ومن أنصار هذا الرأي الأستاذ الأمريكي باري فيل في كتاب له بعنوان «أمريكا قبل عصر كولمبس»(٥) وهو يعتمد على نقوش متفرقة وجدت على الصخور فى ولايات أمريكية يرى الدكتور فيل أن بينها وبين الكتابة العربية وجه شبه كبير وأنه استطاع تمييز الشهادتين (لا إله إلا الله محمد رسول الله) من بين هذه النقوش!.

ومهما يكن من أمر فان بحر الظلمات لم يكن مظلما أمام عرب الأندلس وأن ثمة محاولات جادة قاموا بها، قد مهدت الطريق أمام كولمبس في رحلته المشهورة.

رحلة ابن جبير :

وهناك غير ما تقدم ذكره لون آخر من كتب الرحلات البحرية في التراث العربي، أكثر موضوعية ولا يميل الى الاثارة. ومن ذلك رحلة ابن جبير البلنسي الأندلسي (١١٣٥ – ١٢١٧م) التي كتبها على شكل يوميات وتمتاز بأسلوب فني راق. وقد قام ابن جبير برحلته هذه من الأندلس الى مصر على مركب صليبي وفي الوقت الذي كانت فيه بلاد الشام تحت قبضة الصليبيين، ثم أبحر من عيذاب على البحر الأحمر في مصر الى جدة للحج. وكان ابن جبير دقيق

الملاحظة وكتابه يحوي بين دفتيه مادة طيبة عن التجارة واجراءات الجمارك وأحوال البحر وسفّارته وعن أنواع السفن وطريقة صيانتها ولسوء حظه لم تكن الأحوال الجوية مواتية عندما عبر البحر الأحمر من عيذاب الى جدة في شهر يوليو من عام ١١٨٣م (أي من ثمانية قرون) اذ هبت أعاصير أطاحت بالجلبة (كانت مراكب البحر الأحمر تسمى الجلاب ومفردها جلبة) التي كان عليها الحجاج عن مجراها ولم يتمكن ربانها الحاذق من الرسو في ميناء جدة لكثرة الشعب المرجانية على مدخله، فاضطر الى الرسو في شرم أبحر(٦). وفي ذلك يقول ابن جبير.

«وفي عشي يوم الأحد ثانيه (أي ثاني ربيع آخر) أرسينا بمرسى يعرف بأبحر وهو على بعض يوم من جدة وهو من أعجب المراسي وضعا وذلك أن خليجا من البحر يدخل الى البر، والبر مطبق، من كلتا حافتيه، فترسي الجلاب منه في قرارة مكنة هادئة. فلما كان سحر يوم الاثنين بعده أقلعنا منه على بركة الله تعالى بريح فاترة والله الميسر لا رب سواه. فلما جن الليل أرسينا على مقربة من جدة، وهي بمرأى العين منا. وحالت الريح صبيحة يوم الثلاثاء بعده بيننا وبين دخول مرساها. ودخول هذه المراسي صعب المرام بسبب كثرة الشعاب والتفافها. وأبصرنا من صنعة هؤلاء الرؤساء والنواتية في التصرف بالجلبة أثناءها أمرا ضخما: يدخلونها على مضايق ويصرفونها خلالها تصريف الفارس للجواد الرطب العنان السلس القياد، ويأتون في ذلك بعجب يضيق الوصف عنه. وفي ظهر يوم الثلاثاء الرابع من شهر ربيع الآخر المذكور وهو السادس والعشرون من شهر يولية كان نزولنا بجدة حامدين الله عز وجل».

يالله! أي دقة في الأسلوب ودقة في الوصف وصفاء في القريحة أبدع من ذلك!.

تحفة النظار :

وبعد قرن ونصف قرن من ذلك الزمن يقوم الرحالة المغربي الطنجي ابن بطوطة برحلاته المشهورة (١٣٢٥ – ١٣٥٤م) في البحر الأبيض المتوسط والبحر

الأحمر وارخبيل الملايو وعلى جزر المحيط الهندي ويحاول الوصول الى مشارف الصين ويضمن ذلك كله كتابه المعروف باسمه «تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار» الذي يعتبره النقاد «من أمتع كتب الرحلات في جميع العصور» وقد ترجم الى عديد من اللغات.

ويصف ابن بطوطة فيما يصف «الجلاب التي كانت تبنى في عيذاب، وهي مخيطة بأمراس من القنبار وهو قشر جوز النارجيل يدوسونه (أي الصناع) الى أن يتخيط (أي يصير أليافا أو خيوطا) ويفتلون منه أمراسا».

بيد أن ابن بطوطه – على النقيض من ابن جبير – لم يستطع التحرز من ذكر الأساطير في كتابه فهو يتكلم – على سبيل المثال – عن الجني الذي يظهر لسكان احدى جزر الملديف في أول الشهر العربي على شكل نار كبيرة في البحر، وقد استطعنا أن نعلل هذه الظاهرة بالاضاءة البيولوجية Bioluminescence وهي ظاهرة مميزة لبعض الكائنات البحرية التي تعيش في البحار الحارة(٧).

المراجـع

أ ـــ بالعربيـــة :

- ابن بطوطة (شرف الدين أبو عبدالله محمد الطنجي) (١٣٠٣–١٣٧٧م) تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأبصار – ترجمة وتحقيق دفريمري وسانجونتي – باريس ١٩٢٢م.
- ابن جبير (أبو الحسن محمد بن أحمد البلنسي) (١١٨٣–١١٨٥) – الرحلة، تحقيق وليم رايت – ليدن ١٩٠٧م.

- ابن الفقيه (الهمذاني) (٩٠٣م) – كتاب البلدان.
- الادريسي (أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن ادريس المعروف باسم الشريف الادريسي) (٤٩٣–٥٦٠هـ) – كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق – ترجمة جوبير – باريس ١٨٢٦م وطبعة القاهرة.
- السيرافي (أبو زيد حسن) (٩٥٠م) – رحلة التاجر سليمان (نشرها فران) باريس ١٩٢٢م.
- المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين بن علي) (٣٤٥هـ) – مروج الذهب ومعادن الجوهر – تحقيق دي منيار – باريس ١٨٦١ – ١٨٧٧م.
- أنور عبد العليم – ١٩٦٧ – ابن ماجد الملاح – الكتاب رقم ٦٣ في سلسلة أعلام العرب – دار الكاتب العربي – القاهرة.
- بزرج بن شهريار الرام هرمزي (٩٥٠م) – كتاب عجائب الهند مخطوط القاهرة بدار الكتب المصرية.

ب – بالإفرنجيــة :

- Abdel Aleem, Anwar (1968): Concepts of Marine Biology among Arab writers ei the Middle Ages - Proceedings, First International Congress on History of Oceanography. p. 359 - 367 Monaco.
- De Goeje, M. (1890-1893): La Legende de St. Brandan. tome & II, Leiden.
- Fell, Bary (1979): America before the Age of Columbus., New york.
- Ferrand, G. (1922): Voyage de Marchand Sulayman en Inde et en Chine, Paris.
- Wright, William (1907): Glossary to the Voyage of Ibn Jabir. Leiden.

الهوامش

(١) هي جزيرة مدغشقر واليمن هنا تعني الجنوب.

(٢) د. أنور عبد العليم: ابن ماجد الملاح – أعلام العرب – (الكتاب رقم ٦٣) دار الكاتب العربي – القاهرة ١٩٦٧.

(٣) انظر M. de Goeje (1890-1893): La Legende de St. Brandan, vol. 1&2. Leiden.

(٤) وفي هذا الصدد تجدر الاشارة أيضا الى التشابه الكبير بين قصة روبصون كروزو لمؤلفها ألن دي فو وقصة حي بن يقظان من الأدب الأندلسي القديم لابن طفيل وللمصادر العربية لجحيم دانتي وقد كتب في ذلك بتوسع المستشرق الأسباني المعروف خوان فرنيط.

(5) Barry Fell: America before the age of Columbus (1979).

(٦) شرم أبحر هو لسان ضيق من البحر الأحمر داخل الأرض ويبعد عن جدة بنحو ٣٥ كيلومترا ويعتبر مصيف جدة. وقد ورد ذكر هذا المرفأ في رحلة ابن جبير بيد أن المستشرق الانجليزي وليام رايت الذي حقق رحلة ابن جبير لم يستطع الاستدلال على هذا الاسم واعتبره تصحيفا.

William Wright (1907) Glossary to the Voyage of Ibn Jabir. Leiden.

(٧) انظر : د. أنور عبد العليم عن ظواهر جديدة في علوم الأحياء البحرية وصفها الرحالة العرب في القرون الوسطى. بحث منشور في إصدارات المؤتمر الدولي الأول لتاريخ علوم البحار (صفحات ٣٥٩ – ٣٦٧) سنة ١٩٦٨. موناكو (باللغة الانجليزية).